الغرب والإسلام
مجهودات جبارة لتغيير ثقافي يخدم طموحات الغربيين

بقلم د/ محمد بن حمو

لقد حاول الغرب منذ القديم جاهدا السيطرة على بقاع العالم ، ونذكر من ذلك الجملة الكبيرة التي قادها الإسكندر المقدوني(356- 323 ق.م.) مكتسحا أراضي اليونان والإمبراطورية الفارسية، وكان في نيته الوصول إلى الجزيرة العربية . وهذه النظرة التي كان فيها كثير من الاستعلاء والتكبير في الأرض هي التي جعلت العالم الغربي لا يستقر ولا يهدأ له بال إلا حين يقوم بالغزو. وكلما ظهرت مدينة ذات حضارة متميزة – كما كان حال قرطاجة- هب رجال الغرب والجنون يدفعهم إلى جيوش البر والبحر للقضاء على هذه الحضارة الجديدة. ألم يكن كاتون القديم Caton l'ancien (230- 149 ق.م) مصابا بجنون قرطاجة فكان يتمنى لها الزوال في كل لحظة، وكان لا يفتأ يردد جملته الشهيرة "Dalenda est Carthago" ومعناها "يجب تحطيم قرطاجة" . فمنذ القديم قام العقل الغربي بتصنيف العالم. فقسموه قسمين: "الأنا" الرجل الأبيض الأوربي القوي ممثلا في اليونان وروما، و "هم" ويدخل فيه كل من سواهم وحتى العالم الشرقي المتطور جدا في ذلك الوقت (العراق، مصر، الشام) ولم يتورعوا حتى عن جيرانهم قبائل الجرمان والكلتيين

و الإفرنج والقوط، فالصقوا بهم كلمة "برابرة" ليخرجوهم من دائرة الحضارة. وبينوا ذلك في أرض الواقع، إما إخضاع "الوحوش" إلى الحضارة وإما قتلهم أو تشريدهم في الغابات والجبال. وفي هذه الحال تنشأ حدود فاصلة بين الحضارة والتوحش كما هو الحال في سور هادريان في انجلترا، والحدود الفاصلة بين الرومان والقبائل الجرمانية في ألمانيا (limes).

ويعبر إدوارد سعيد عن هذه العقلية بقوله: "إن جماعة من البشر تعيش على بعض هكتارات من الأرض ستقيم حدودا بين أرضها وحدودها المباشر وبين ما هو خارج عن ذلك، وتسمى ما يقع عبر حدودها "أرض البرابرة". وبكلمات أخرى، إن هذه الممارسة الكونية، أي تحديد مجال مألوف في ذهن المرء يسمى مجال "نا" ومجال غير مألوف خارج مجال "نا" يسمى مجال "هم""[2]

ومن أجل هذا التصرف تحول العالم منذ القديم إلى عدو لدود للغرب يحذره ويتربص به ويرجو ضعفه وهوانه. وكان الغرب دوما يستغل قوته في الهجوم: اليونان، روما، نابليون، هتلر؛ أو يستغل ضعف غيره وتفرقه كما كان الحال في الحروب الصليبية التي كانت أشد سوادا من المداد الذي كتبت به، وما ذلك إلا لأنها لم تكن واقعية ولا مبررة، وهي" أسوأ حرب في التاريخ من حيث أهدافها ووسائلها ونتائجها، وقد رجع الضرر أول ما رجع على النصارى أنفسهم لأن المسلمين في تلك الفترة لم يكن تحطيمهم بالأمر الهين حتى وإن اختلفوا أحيانا. وزعم هؤلاء أن هذه الحرب قامت درءا للظلم الذي يعاني منه النصارى تحت حكم المسلمين"[2]. وربطها دعاتها ومنظروها بالغفران، يقول أوربان الثاني: إن جميع الذين يذهبون إلى هناك ويفقدون

حياتهم في البر أو البحر أثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار، سيتم غفران ذنوبهم بالحال"[3] والمسيح هو نفسه القائد الأعلى لهذه الحملة: "حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد"[4]

والحروب الصليبية في نظرهم حرب شرعية، فهذا "هوستنسيس Hostjensis يرى أن كل حرب صليبية شرعية بدون جدل سواء وجهت ضد كفار الشرق، أو ضد الهراطقة والمنفصلين من الغرب ما دامت روما هي "أم العقيدة" إذ بهذا اللقب يتوجب على روما أن تحارب كل من يحيد عن هذه العقيدة"[5] وبهذا "الحماس" حاول الأوربيون تغيير العالم الإسلامي الذي كان يمثل الدين الصحيح والحضارة الإنسانية، وهو ما رفضه هؤلاء لأنهم بنوا أهدافهم على الطمع والسلب والنهب والقضاء على الآخرين وبخاصة إذا كان "الآخرون" يمثلون حاجزا دون هذه الأهداف. إن الأمور قد اختلطت في المشروع الصليبي، هل يقنعون الناس بالأهداف الدينية التي دعا إليها أوربان الثاني ؟ هل يخلطون بها أمورا دنوية علها تكون حافزا ومنشطا للعامة ليهبوا كرجل واحد ؟ إن ما قام به الصليبيون من أعمال شنيعة و"جرائم حربية" في البلاد التي اكتسحوها لهو خير دليل على انهم كانوا يسعون بالفعل لتغيير شامل في المشرق الإسلامي يصير بعده حلقة من حلقات هذا العالم الفوضوي الغارق في الماديات.

إن أوربا قد غفلت عن الأعداء الحقيقيين للعالمين النصراني والإسلامي: العالم الوثني الذي عانت منه الحضارة الغربية : القبائل البربرية، المكتسحة التي لا تترك خلفها إلا الدمار والفقر والموت.

إن الحملات الصليبية خلقت شقة كبيرة بين العالمين المسيحي والإسلامي، ومنظرو هذه الحرب كانوا هم السبب والنتائج كانت ضئيلة جدا و "لم يوفقوا إلى أكثر من قسمة العالم إلى معسكرين متعادين، وهذه القسمة الفاجعة لا تزال قائمة حتى يومنا هذا، فهي تحول دون حدوث امتزاج ثقافي وسياسي سليم بين الحضارتين الغربية والعربية"[6].

ولكن مالنا ولكثرة الحديث عن الصليبية ونتائجها وفي العرب والمسلمين من العيوب ما كان سببا في ضعفهم وهوانهم على الناس ؟ ألم يكن المسلمون –وبخاصة بعد سقوط الدولة العظيمة– السبب في طمع الطامعين ؟ ألم يعبدوا طريق الهجمة باختلافاتهم الضارة ؟ وحدث كل ذلك بسبب الابتعاد عن الإسلام الذي كان حصنا منيعا حافظ على الأمة طيلة قرون، وحماها من الداخل: الفرد المسلم كان يتمتع بالعقيدة السليمة والأخلاق الحسنة والعمل لأخراه ودنياه، فكان عنصرا فاعلا نشطا، يتعامل مع غيره متراصا ليشكل جدارا منيعا: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيانا مرصوص"[7]. وبذلك حمى نفسه وأمته من الداخل والخارج، فكل مسلم على ثغرة من الإسلام. وبهذا الفرد القوي تشكلت الأمة وقاومت وصبرت على المحن وتصدت للضربات الموجعة بصدورها. وكلما هاجمها عدو انقلب خاسرا مدحورا حتى وإن ظفر بغنائم أو قتل وشرد. واستمر ذلك مدة طويلة إلى أن بدأ الضعف يدخل عمق المجتمع الإسلامي وذلك بالابتعاد عن الإسلام الصحيح والركون إلى الراحة والميل إلى الترف والدعة وترك العمل والتثاقل عن الجهاد فانكمش الناس على أنفسهم، كل يحدث نفسه ويمنيها الأماني ولا

يسعى إلى شيء من العمل إلى ما سد الرمق، فطغى التعصب المذهبي على التسامح، وصار المذهب أكثر قيمة من أصول الشريعة، وربما قبل المتعصبون أهل الملل والنحل ورفضوا مذاهب السنة وأصحابها إلا مذهبهم،فأوجبوا بغض من يخالفهم واقفلوا باب الاجتهاد وانزووا في المذهب يدرسونه ويشرحونه وكلما مر ذكر لمذهب غيره نفروا منه وحذروا وابتعدوا عنه وخاصموا من يقول به. وهذه الحرب الفقهية أسالت حبرا كثيرا وأضاعت وقتا ليس بالقصير ولو صرف في كبار الأمور لنفع الأمة وكشف عنها الغمة. وكذلك انقسمت الدولة إلى دويلات ضعيفة هزيلة يكيد بعضها لبعض، وهذه الدويلات في حال تفرقها لا تشكل أية قوة رادعة لهجوم غربي محتمل. وهذا التفرق حذر منه القرآن الكريم: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"[8]. إن الدويلات الضعيفة ستكون لا محال مساعدة على ضرب الإسلام وأهله، وذلك لسببين:

1-إن هذه الدويلات لا تستطيع مقاومة الجيوش الغازية الأوربية لكونها هزيلة وضعيفة ولا تملك المال والجيش لصد القوات الجبارة.

2-إن معظم جهود هذه الدويلات موجهة ضد بعضها، وهذا يجعلها غافلة عما يخطط لها من وراء البحار.

وكان هذا المرض الخطير، المرض بالتعصب المذهبي والمرض بالفرقة السياسية يسرى شيئا فشيئا داخل جسم الدولة الإسلامية. وما سقوطها إلا آتٍ ولو بعد حين، وبالمقابل كانت هناك صحوة في أوربا أعقبت نوما عميقا وقوة جاءت بعد ضعف وهزال، وتجمع بعد تشتت وانقسام. فأطلقت أوربا على علوم الأقدمين واحتكت بالموروث الإسلامي الكبير،فقرأت وأحسنت

القراءة، وفسرت ما غمض من علوم الأقدمين، ومحضت، وأظهرت الاختلاف ودعت إليه لأنه يحيي العقول ويميز العلماء والباحثين والباحثين من غيرهم. ومكنتها هذه العلوم والمعارف من الخروج من ضيق أوربا إلى سعة العالم، فوصلوا بأساطيلهم ومدافعهم وخيلهم ورجلهم إلى جزر في المحيطات بعيدة وإلى أراض في القارات موحشة. وبخلاف ماكان عليه العالم الإسلامي آنذاك، كان الغرب لا يتحرك إلا بجناحين قويين: الجناح الأول العلوم والمعارف التي كان من نتائجها صنع الأسلحة الفتاكة التي كثيرا ما حسمت المعركة لصالحهم، والتخطيط الشامل والدقيق قبل الإقدام على أي عمل، والجناح الثاني الجيوش النظامية في البر والبحر. وهذان جناحان لا غنى عنهما لمن أراد القوة في السلم أو في الحرب العلوم تقود الجيوش وتمدها بالسلاح الحديث والخرائط الراصدة لتحركات "العدو" ومعرفة طبيعة الأرض وتشكيلة السكان، ومواطن القوة والضعف ليكون في النهاية الوصول إلى هدف واضح: تغيير العالم الإسلامي ليكون حلقة في هذه السلسلة. وللوصول إلى هذا "التلاؤم" وهذا "التغيير" قاموا بما يلي :

1-التشكيك في الأسلام.

2-الهجوم على العالم الإسلامي.

3-تفكيك وحدة المسلمين.

1- التشكيك في الإسلام

أما محاولاتهم المتكررة في التشكيك في الإسلام فدفعهم إليها معرفتهم بهذا الحبل المتين الذي يعتصم به المسلمون، والذي يحفظهم من كل زيغ

وطيش ويقوي شوكتهم، فبدأوا بالتشكيك في الوحي وفي نبوة محمد صلى الله علية وسلم. وفي ذلك يقول بروكلمان: "واستخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن، كما عزا –على غراره– أحوال غيبوبته وما يصدر في هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه جبريل، واعتقد انه رسول الله إليه"[9]. ومحمد في نظرهم رجل كأي رجل طالب للسلطة يسعي بخطبه إلى تأليف الناس حوله: "أما في المدينة حيث ترقى النبي إلى مرتبة الحاكم وزاول عمل المشرع فإن مواعظه وتشريعاته، وإن احتفظت بقافية السجع، التي كثر مع ذلك عدم إحكام تناولها، قد تحولت إلى نثر خالص، كان على محمد نفسه أن يبتكر أسلوبه، على نمط من الدرس والتعليم."[10] ولم يتورع الكارهون للإسلام والمشوهون لصورته عن سبه وشتمه حتى وهم في بلاده وبين أهله. وفي ذلك يقول مصطفى الشكعة: "لا أزال أذكر ويذكر الكثيرون معي موقف المستشرق اليهودي النمسوي المولد الأمريكي الوفاة فون غرونباوم حين أخذ يكيل التهم للإسلام والمسلمين دون خجل أو حياء في مؤتمر كراتشي في أواخر العقد الخامس من هذا القرن بحيث استفز جميع أعضاء المؤتمر ومن بينهم قلة متعاطفة معه في سريرتها، الأمر الذي جعل الدولة المضيفة تتخذ قرارا – على كره منها– بطرده من المؤتمر وترحيله عن البلاد".[11]

وقد تعرضت الجزائر لهجمة كبيرة وطئت أقدامها الأرض والدين، وقام رجال الفكر بالوزر الأكبر في تشويه صورة الإسلام وساعدتهم "السلطة الغازية التي فتحت لهم المكتبات الإسلامية في الجزائر، فاطلعوا على الكتب والمخطوطات العربية في العلوم والفنون المختلفة، فاجتهدوا في التأليف في

جوانب الإسلام المختلفة، يشوهون صورته ويتحدثون عنه بكل كراهية وحقد، ويزيفون الحقائق ويدعون بأنه هو الذي قام بالمذابح الرهيبة ضد المسيحيين ليبرروا اعتداءاتهم ضد الجزائريين."(12).

ومعظم هذه الدراسات كانت تنطلق من وجهة نظر غربية نصرانية لها موقف سابق من الإسلام، ولذلك "كثرت الأبحاث الاستشراقية عن الإسلام متخذة طابع البحث العلمي ومتناولة موضوعات مختلفة.

ولكن هذه الدراسات جميعا تنقص من الإسلام وأهله، وتدعو جهرة إلى نبذه لأنه المعرقل لمسيرة العرب الحضارية، وركزوا على القرآن الكريم والسنة النبوية بوصفهما ركيزة هذا الدين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم، "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا: كتاب الله وسنة رسوله"(13).

وشجعهم على هذه الكتابات المتواصلة ظنهم أن بريق الكتابة ولمعانها سيجعل المسلمين ينبذون دينهم. و"كانوا يتصورون أن إلصاق التهم بالإسلام سوف يدعو معتنقيه إلى نبذه والتخلص منه، وهو ما يجر بالتأكيد إلى جلبهم إلى المسيحية والفكر الغربي."(14).

2- الهجوم على العالم الإسلامي.

والغرض من ذلك فرض التغيير بالقوة، إذ القوة والسلاح والقهر يكمل ما بدأه التخطيط الفكري. والإستراتيجية الغربية ما فتئت تستعمل السلاح والنار للقهر والإذلال والسيطرة لإدخال الأمم "الأخرى" في "الحظيرة". فكان ذلك دأب اليونان ثم الرومان ثم دويلات العصر الوسيط. وركزت جل هذه

الحملات على العالم الإسلامي في المشرق والمغرب. وقد عانت الجزائر. -على سبيل المثال- من هذه الهجمة، وجريمتها في ذلك انتماؤها لهذا الدين "المخيف" الذي أذهب النوم من أعين المخططين والمنفذين على السواء، وكل هذه المحاولات سواء ما نفذ منها وما لم ينفذ مازادت الإسلام إلا قوة وتجربة.

وقد شجعت خطبة أوربان الرهيبة كافة النصارى على السير لقتال هؤلاء المسلمين: "أتوجه إليكم بالرجاء والتحريض أتوجه إلى الفقير منكم والغني وأسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل إخواننا، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسب إلى عباد المسيح"[15].

وقد جاء في هذا القول أكاذيب نمقها هذا الداعي للحرب، وأولها وصف المسلمين بأبناء الشر، وقد زال من ألفاظه كل لباقة ودبلوماسية واندفع وراء غيظه المصطنع ليخشن نفوسا مهيأة للسماع فالتنفيد، وما هذه النفوس التي يخاطبها إلا نفوس أناس ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وزاد من هذا الضيق قهر حكامهم لهم وسيطرتهم التي كبلت حرياتهم زيادة على الأزمة الاقتصادية الخانقة التي أفقرت جل الأوربيين. ويجب أن ننبه هنا إلى أن المسيحية في صورتها الأصلية ليست وراء هذا العداء للإسلام و"إنما هي (روح الانتقام) من الإسلام؛ تلك الروح التي بعثت في ما مضى على الحروب الدامية في القرون الميلادية الثلاثة: الحادي عشر، الثاني عشر، والثالث عشر، محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وبقيت منذ هزيمتها الكبرى على يد "الناصر صلاح الدين"، مصاحبة لعقلية الغرب في عرضه للإسلام، وفي تصرفاته مع المسلمين على السواء. و لم تزل فيه باقية صحبة هذه العقلية حتى اليوم"[16] و لم

تتوقف الحملات العسكرية ضد الإسلام وأهله وبلاده منذ بدأت، والتخطيط الغربي يرى في الحملات المتكرر ولو جزئية جروحا قد تكون صغيرة ولكنها ستحدث أثرا بالغ الأهمية عند تراكمها، وقبل أن يلتئم جرح لا بد أن يليه جرح آخر وهكذا إلى أن يتهاون هذا (المارد) الذي يقف حاجزا يمنع الغربيين من تحقيق ما يريدون. وأوربا تعلن بذلك، فهو ليس بسر و"لطالما صرح زعماؤها وعلمائها برغبتهم في القضاء عليه حين تحين الفرصة ويعترف الاستعمار نفسه أن أشد ما يخشاه هو الإسلام وانتشاره لأن له قوته وجلاله وأنه الوحيد بين الأديان والمذاهب والإيديولوجيات الذي يستطيع أن يقف في وجه أطماع الغرب وسيطرته على العالم سياسيا وحضاريا ودينيا وفكريا"(17).

وكثيرا ما رجعت جيوش الغزاة تجر أذيال الخيبة، وما زادها ذلك إلا إصرارا لأنها كانت تعلم علميا ليس بعده شك أن هذه الأمة ستنهار و-إن صمد دينها- لأن فيها من الضعف والهوان والقهقرى ما يجعلها مكبلة جريحة لا تستطيع حراكا، وما تلك الانتصارات التي تحرزها عساكرها بين الحين والآخر بنافعة أمام الضربات المتكررة والموجعة والمعدة بإحكام وإتقان.

وقد آتت الهجمة على العالم الإسلامي أكلها لأسباب:

1- إن الاستعمار أكثر من الطلائع والجواسيس يجوبون بلاد العرب والمسلمين ليعرفوا القوة والضعف، الراعي والرعية، الدين والفكر والأخلاق، ليصلوا إلى ما سطروه و"لتحقيق هذا الهدف أكثروا من هذه الطلائع ليمارسوا التجسس على البلاد والتعرف على أحوالها وكتابة التقارير عنها،وكان لا بد للجاسوس

أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد،وأن يصطنع البحث العلمي،وأن يسعى لخلق صلة بين الأهالي وجيوش الاستعمار إذا دخلتها"[18].

2- إن الاستعمار أوكل للعلماء والباحثين -وجلهم من المستشرقين- مهمة التقرب من البلاد الإسلامية والكتابة عنها، بطريقة لا تثير الريبة في النفوس ولإشراق استمرار لروح التعصب الذي بدأ بالتقتيل والسلب والنهب وقد "حاول الغربيون عن طريقة طعن الإسلام والتغلب على المسلمين بعد أن فشل سلاح الحديد والنار، فقد نفر قوم من أهل الغرب يدفعهم التعصب الصليبي إلى الكتابة عن الإسلام"[19]. وفي الجزائر وهي من البلاد الإسلامية التي زرع فيها الاستعمار ما شاء لمدة طويلة كثرت فيها هذه الدراسات العلمية في ظاهرها والتجسسية في باطنها إذ " لم تمض السنوات العشر الأولى من الاحتلال حتى همت حكومة فرنسا للتوسع داخل الجزائر بطريقة مدروسة فنشطت الدراسات المتعلقة بالجزائر فكانت النتيجة ما يقرب من أربعين مجلدا ما بين 1844-1867. وقام العسكريون بنصيبهم من هذه الدراسة،وعلى رأسهم كاريت Carette وبيليسي Pellissier.وتضم هذه الدراسات كل التخصصات: تاريخ،جغرافيا،علوم طبية،علوم فيزيائية،علوم الآثار. وكل هذه التخصصات مجتمعة تمكنهم من معرفة شبه الكاملة لمن يسمى بالآخر أي الجزائري العربي والجزائري البربري"[20].

3- إن الاستعمار استعان برجال الدين النصارى الذين تلقوا تدريبا خاصا وقاسيا للعمل خارج البلاد النصرانية فهم مكلفون بأعمال ظاهرها ديني يتمثل في نشر التعاليم النصرانية وإخراج الوثنيين من الظلمات إلى النور وجعل نور

الرب يسطع على هذه البلاد المقفرة الموحشة البعيدة عن كل حضارة وعلم وإيمان وباطنها عمل استعماري تجسسي يقصد به تمهيد الطريق وتعبيدها أمام الجحافل الاستعمارية،ومن بين أهدافها الكشف عن الأماكن المجهولة والصحاري الموحشة تحت ستار نشر التعاليم المسيحية(21).

الهوامش

1- الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ط2 1984 ص 84

2- التبشير و الاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر محمد بن حمو ص49

3- الحروب الصليبية، سهيل زكاد دار حسان للطباعة، دمشق ط1 1984 ص5

4- نفسه ص6

5- تاريخ الفكر السياسي، جان توشار. تعريب:د.علي مقلد، الدار العالمية للنشر والتوزيع. بيروت ط2 1983 ص159

6- الإسلام والعرب، روملاندو. ترجمة: منير البعلبكي. دار العلم للملايين بيروت.ط2 1977 ص116،115

7- الآية 4 من سورة الصف

8- الآية 49 من سورة الأنفال

9- تاريخ الأدب العربي بروكلمان. دار المعارف بمصر 135/1

10- نفسه 138/1، 139

11- مناهج المستشرقين 276/2

12- دور التبشير والاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر. محمد بن حمو، رسالة الماجستير، جامعة عين شمس 1989 ص146

13- نفسه 147

14- نفسه 147

15- الحروب الصليبية
16- الهى 499
17- فلسفة الاستشراق وآثرها في الأدب العربي المعاصر د. أحمد سمايلوفتش ص50
18- نفسه 120
19- أضواء على الاستشراق. محمد عبد الفتاح عليان. دار البحوث العلمية الكويت ط1 1980 ص10
20- L'Algérie des' anthropologues, Philipe Lucas, Jean Claude Vatin, François 2Maspéro, Paris 1979 p13
21- دور التبشير والاستشراق محمد بن حمو ص44